صفحة من التاريخ

روح مصـــــر

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

دع من شاء يتغنى بفرنسا وما فى فرنسا، ودع من شاء يتغنى بانجلترة وما فى انجلترة ؛ دع هؤلاء جميعاً يمنفون مصر وما فى مصر وينكرون ماضيها، فما نحن منهم فى شىء. وليس فى الأمر علينا من مضاضة إلا ألم الساعة نشعر به كلما وقعت أعيننا عفواً أو قصداً على كلمة لبعض هؤلاء ؛ حتى إذا مرت الساعة لم يبق من أثر لكلمتهم إلا كما يبقى من أثر قول الوالد العاق فى نفوس أهله، فان الحب يغلب الكراهة، وسعة صدر الوالد لا يدوم معها الغل ولا تبقى عليها الحفيظة. ثم لن تكون إلا أعوام فتنضج العقول الفجة، ويتسع الأفق الضيق، ويغزر المحيط الضحل، فيعود هؤلاء جميعاً إلى تقديس مصر ومعرفة روحها، وإعطائها ما يجب لها من الاجلال.

وأما نحن فما بنا ولله الحمد غير مصر وحب مصر، والاعجاب بها والاشفاق عليها: نعجب بما فيها من جليل، ونشفق على ما بها من عليل أو ضعيف. ليس فى القلب نحوها موضع لغير عاطفتى الحب والاشفاق. هذه كلمة نفرج بها عن النفس مما تحسه، إذ كثر فى هذه الأيام حديث الزراية بمصر من قوم لا نجد فى نفوسنا ميلاً إلا للدعاء لهم بالتوفيق إلى ما هو خير من ذلك وأكرم.

ولنعد إلى الماضى نقلب فيه صفحة من صفحات تاريخ مصر، لنرى أن روحها كان أبداً روح الكريم الأبى، ولو علا تلك الصفحة صدأ القدم، أو غشاه الوهم.

لا حاجة بنا الى أن نعود إلى أيام الفراعنة، أو إلى أيام مجد الدول الأسلامية التى كان فيها لمصر ذلك الروح المتوثب القوى، بل نعود إلى أيام القرن الثامن عشر الذى يصفه بعض المؤرخين بالظلمة والانحطاط، ولم يتورعوا أن يتهموه بأقسى التهم وأشنعها، وتعدوا فيه الوصف الشنيع إلى السب المقذع حتى فى التسمية، فلا يعرفونه إلا باسم « عصر المماليك » كأننا بهم يعيرون حكامه بأنهم كانوا فى أول أمرهم يُشترون بالمال. وإنا إذا عدنا إلى ذلك العصر لم نجد روح مصر خفياً، بل نراه واضحاً مجلواً على عهده من الكرم والآباء:

لئن كان حكام مصر الأسبقون يُشترون فى أول حياتهم بالمال، فقد كانوا رجالاً حماة طالما ذادوا عن حوض مصر، وحموا ذمارها. ولقد كانوا يفاخرون بمصريتهم ويعتزون بها، ويسمون أنفسهم منتسبين إليها، فكانوا يعرفون أنفسهم باسم « الأمراء المصريون » وما أجدرنا نحن اليوم أن نسميهم بذلك الاسم ونتجنب تلك التسمية الجائرة التى رددها من قبل أعداء مصر ظلماً منهم وعدوانا. فلقد ألصقت بهم هذه التسمية منذ أطلقها عليهم فرنجة الحملة الفرنسية الذين جاءوا إلى مصر لينزعوها من أيديهم ويحلوا محلهم فى حكم البلاد، فكانوا يحاولون فى كل مناسبة أن يشهروا بهم ويحملوا عليهم، بغية أن يفسدوا عليهم قلوب أهل مصر. ولهذا حبب إليهم أن يسموهم باسم « المماليك » وأن ينعتوهم بأشنع النعوت، ويتهموهم بأبشع التهم.

أما نحن فما أحرانا أن ننظر لأنفسنا بأعين مجردة عن الهوى، وأن ننظر إلى صفحة تاريخهم بغير حقد ولا كراهة، فما كانوا بأهل لذلك، وما كان حكمهم إلا كسائر حكم الدول التى تعاقبت على مصر فى مختلف العصور. فلقد تعاقب فى عهدهم حكم العدل والظلم، واختلف فى زمانهم زهو النصر، وذلة القهر — وأى عصر فى التاريخ قد خلا من مثل هذا التقلب والاختلاف ؟ وكان شعب مصر فى مدتهم يزن الدولة، فيرى ما فيها من حسنة وسيئة، فاذا رأى الحسنة غالبة، غفر السيئة فى سبيلها، وهو فى ذلك مثل سائر الشعوب المتمدينة المستقرة، لا تستخفه الحوادث الى العنف ضناً بالسلام والطمأنينة.

غير أن ذلك الشعب الوديع كان يرى أحياناً من الحكام من لا يستحق عطفه ولا إجلاله، فكان عند ذلك يرفض الأعتداء بالباء العازم على عدم الاستكانة. وما أكثر الآيات الدالة على هذا لمن أراد النظر لنفسه، ومن لم يتلق وحيه عن أساطير الكاهنين الكاشحين.

ولى أمر الحكم فى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر أميران من أضعف من ولى أمر الحكم فيها، وهما مراد وإبراهيم. فكان حكمها فى مصر أشبه شىء بالمرض يعترى جسم الشاب الناشىء؛ وتهدم فى أيامهما ما بناه أكابر الأمراء السالفين قبلهم منذ أيام إبراهيم ورضوان، ومن جاء بعدهما مثل على بك الكبير ومحمد بك

أبي الذهب. وشهد أهل مصر في أيام هذين الحاكمين الضعيفين تغيراً في نظام الحكم ونمط السياسة، وأخذت شوكة الدولة تتجه نحو جوانب الناس تخزهم وتؤذيهم وتفسد عليهم أحوال حياتهم، وما كان عهدهم بشوكة الدولة أن تكون أداة أذى لهم. فإن الأمراء المصريين كانوا منذ القدم إذا تشاحنوا كان تشاحنهم فيما بينهم، وإذا اعتدى بعضهم فانما كان يعتدى على بعض، وإذا غصبوا مالا أو سفكوا دما فانما كان الحزب الغالب منهم يغصب مال الحزب المغلوب، ويسفك المنتصرون منهم دماء اتباع الحزب المخذول. وقديما تشاحن الأحزاب على الحكم وتنافسوا على السلطة، وما كان بأهل مصر بأس من ذلك، إذ كانوا في كل هذه الحركات بمعزل عن الأذى. دماؤهم محفوظة، وأموالهم محرمة، وأعراضهم مقدسة؛ وأما منذ تولى أمر الحكم ابراهيم ومراد، فقد تغيرت الحال، وخرقت الحدود، وإذا بجنود الدولة تعسف بالناس، وتنتهك حرماتهم، فلم يرضهم ذلك، بل احتجوا وشكوا، ثم تحركوا واضطربوا، وكان اضطرابهم ذلك، قبل أن يتحرك شعب فرنسا في ثورته الكبرى بنحو أربع سنوات.

قال صاحب «عجائب الآثار» في حوادث سنة مائتين والف للهجرة: أي في سنة الف وسبعمائة وخمس وثمانين للميلاد ما يأتي:

«وفي صبحه (يوم الجمعة) ثارت جماعة من أهالي الحسينية بسبب ما حصل في أمسه من حسين بك (تابع مراد بك) وحضروا الى الجامع الأزهر ومعهم طبول. والتف عليهم جماعة من أوباش العامة والجعيدية، وبأيديهم نبابيت ومساوق، وذهبوا الى الشيخ الدردير، فونسهم وساعدهم بالكلام وقال لهم: أنا معكم، فخرجوا من نواحي الجامع وقفلوا أبوابه، وصعد منهم طائفة على أعلى المنارات يصيحون ويضربون بالطبول، وانتشروا بالأسواق في حالة منكرة، وأغلقوا الحوانيت، وقال لهم الشيخ الدردير: (في غد نجمع أهالي الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة، وأركب معكم وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم) فلما كان بعد المغرب حضر سليم أغا مستحفظان، ومحمد كتخدا أرنؤد الجلفي كتخدا ابرهيم بك وجلسوا في الغورية، ثم ذهبوا الى الشيخ الدردير وتكلموا معه، وخافوا من تضاعف الحالة، وقالوا للشيخ: (أكتب لنا قائمة بالمنهوبات ونأتي بها من محل ما تكون) واتفقوا على ذلك وقرأوا الفاتحة وانصرفوا، وركب الشيخ في صبحها الى ابرهيم بك وأرسل الى حسين بك فأحضره بالمجلس وكلمه في ذلك..»

ولم يقف الأمر عند حدود القاهرة، بل اشترك أهل الأقاليم في ذلك، فلم تمض السنة نفسها حتى تحركت مدينة طنطا في أيام مولد وليها المشهور السيد البدوي، وكان الشيخ الدردير على رأس الحركة هذه المرة أيضاً.

قال صاحب تاريخ «عجائب الآثار»:

«فذهبوا (أي أهل طنطا) الى الشيخ الدردير، وكان هناك بقصد الزيارة، وشكوا اليه ما حل بهم، فأمر الشيخ بعض أتباعه بالذهاب الى (الكاشف الظالم) فامتنع الجماعة من مخاطبة ذلك الكاشف، فركب الشيخ بنفسه وتبعه جماعة كثيرة من العامة، فلما وصل الى خيمة كتخدا الكاشف دعاه فحضر اليه والشيخ راكب على بغلته، فكلمه ووبخه وقال له: (أنتم ما تخافون من الله) ففي أثناء كلام الشيخ لكتخدا الكاشف هجم على الكتخدا رجل من عامة الناس وضربه بنبوت، فلما عاين خدامه ضرب سيدهم هجموا على العامة بنبابيتهم وعصيهم، وقبضوا على السيد أحمد الصافي تابع الشيخ وضربوه عدة نبابيت، وهاجت الناس على بعضهم، ووقع النهب في الخيم وفي البلد، فنهبت عدة دكاكين، وأسرع الشيخ بالرجوع الى محله... ثم حضر كاشف المنوفية وهو من جماعة ابرهيم بك الكبير وحضر الى كاشف الغربية وأخذه وحضر به الى الشيخ، وأخذوا بخاطره وصالحوه ونادوا بالأمان... ولما رجع الشيخ الدردير الى منزله حضر اليه ابرهيم بك الوالي وأخذ بخاطره أيضاً، وكذلك ابراهيم بك الكبير، وكتخدا الجاويشية.»

غير أن الحوادث السياسية التي وقعت في ذلك الوقت حالت دون استمرار سعي أهل مصر نحو إصلاح نظام الحكم بأنفسهم، وذلك أن السلطان أرسل عند ذلك جيشاً لمعاقبة المفسدين في زعمه. فانخدع أهل مصر وتركوا ما كانوا فيه من مسعى ظناً منهم أن السلطان كفيل لهم بازالة المظالم وإصلاح الأمور. وبقي جيش السلطان في مصر قليلاً، ثم دعته الدواعي الى مغادرة البلاد فعاد الأمر الى ما كان عليه من عبث مراد وأتباعه، وعاد الناس